تفسير الكتاب المقدّس

انجيل متّى (٥: ١-١٢)

عظة الجبل–التطويبات

الأب ابراهيم سعد

٢٠١٣/١١/١٢

يُشكِّل الإصحاح الخامس من إنجيل متّى عظة الرب يسوع على الجبل، هذه العظة تضمّ أقوال يسوع لتلاميذه حين صعوده معهم إلى الجبل. لم يقل يسوع كلّ هذه الأقوال دُفعَةً واحدة، إنّما قالها على دُفعاتٍ متعدّدة وفي مناسباتٍ متفرّقة، وقد قام القدّيس متّى بجَمعِها ووَضْعِها على هذا النّحو في إنجيله، بهدف أن يُوصِل رسالةً معيّنة إلى قارئي إنجيله. في الإصحاح الرابع من إنجيله، يُخبِرُنا القدّيس متّى عن تجربة إبليس ليسوع في البريّة وانتصار الربّ عليه، وبذلك أراد الإنجيليّ إظهار عظمة الربّ وجبروته كونه لم يرضخ لمطالب الشّرير. وفي الإصحاح الخامس، سعى القدّيس متّى ليُظهِر عظمة الربّ في الأقوال والأفعال: فَنَقل إلينا عظة الربّ على الجبل، فأظهر سلطان الربّ في الأقوال، ثمّ أظهر قوّة الربّ في الأعمال من خلال عَرضِه للمعجزات الّتي قام بها الربّ، في الإصحاحَين الثامن والتّاسع، أي بعد العظة على الجبل مباشرةً. وكما هي حال الأقوال في العظة، كذلك هي حال المعجزات، إذ إنّ يسوع لم يقم بكلّ تلك المعجزات بشكلٍ متتالٍ، إنّما قام بها في مناسباتٍ متنوعة، أي أنّ الواحدة مفصولة عن الأخرى بمسافةٍ زمنيّة معيّنة.

لقد اهتمَّ كلّ إنجيليّ من الإنجيليّين الأربعة بتنسيق نصوص إنجيله، بهدف إيصال رسالة معيّنة إلى سامعِيه. في إنجيل متّى، نرى أنّ الإنجيليّ سعى إلى إظهار حقيقة الربّ يسوع بأنّه ابن الله، فنقَلَ لنا اعتراف الله الآب بابنه الربّ يسوع في المعموديّة قائلاً فيه "هذا هو ابني الحبيب الّذي به سُرِرتُ" (متّى ٣/ ١٧)؛ وأكّد الإنجيليّ هذا الاعتراف عبر إظهار سلطان الربّ في الأقوال من خلال العظة، وفي الأعمال من خلال المعجزات. ثمّ يُكلِّمنا القدّيس متّى عن انطلاق الرّسل للبشارة في الإصحاح العاشر من إنجيله، وبالتّالي فإنّه يُظهر سلطان الربّ يسوع وقوّته في إرسال تلاميذه للتبشير بملكوت السّماوات: هذه هي الهيكلية الّتي اتَّبعها القدّيس متّى في بنائه إنجيله.

في الإصحاح الرابع من إنجيله، يُخبرنا القدّيس متّى عن تجربة إبليس ليسوع في الصّحراء، فيَذكُر لنا قولَ الربّ لإبليس إنّه ليس بالخُبز وحده يحيا الإنسان بل بكلّ كلمة تَخرج من فم الله. وهذا ما حقّقه الربّ في الإصحاح الخامس من إنجيل متّى، إذ لم يفتح فمه حين صعوده إلى الجبل إلّا ليُكلِّم تلاميذه بكلمة الله. وبهذا، أراد الإنجيليّ أن يُعطينا تطبيقًا عمليًّا لكلام الربّ مع إبليس في الصّحراء.

إنّ صعود التّلاميذ مع الربّ إلى الجبل، يُذكّرنا بصعود موسى إلى الجبل: في العهد القديم، نال موسى الوصايا من الله على الجبل، أمّا التّلاميذ فقد نالوا التعاليم الإلهيّة ووصايا الله الجديدة من الربّ يسوع، على الجبل أيضًا. وفي مقارنةٍ بين حَدَث العهد القديم وحَدَث العهد الجديد، نستنتج أنّ التّلاميذ، هُم الّذين يُشبِهون النبيّ موسى في صعوده إلى الجبل وتَسلُّمِه الوصايا، لا يسوع. إنّ الربّ يسوع يُشبه الله الّذي أعطى الوصايا لموسى، فالربّ يسوع كَلَّم تلاميذه ونَقَل إليهم التَّعاليم الإلهيّة. يَجِد هذا الاستنتاج صدىً له في إنجيل متّى إذ إنَّ الربّ يسوع استعمل بوَفرةٍ عبارة "قيل لكم...، أمّا أنا فأقول لكم"، في عظته لتلاميذه على الجبل، وما هذا إلّا دليل على أنّه الله.

في بداية العظة على الجبل، أي في الإصحاح الخامس من إنجيل متّى، نقرأ أنّ الربّ يسوع قد صعد إلى الجبل عند رؤيته للجموع، ولكنّنا نلاحظ أنّ الربّ قد توجّه في عظته إلى التّلاميذ لا إلى الشَّعب الحاضر، ونلاحظ أيضًا أنّه في ختام العظة يقول لنا الإنجيليّ، إنّه "لمّا عَلَّمَ يسوع هذه الأقوال، بُهِتَتِ الجموع مِن أقواله". إنّ هاتين الآيتين: الأولى في الإصحاح الخامس والأخيرة في الإصحاح السابع مُتعارِضتان، وَهُما تدفعانِنا إلى الاستغراب، وإلى استنتاج أنّ الربّ أعطى هذه التعاليم للرّسل الّذين نقلوها بدورِهم إلى الشَّعب. إذًا، هذا هو دور التّلميذ أن يتلقَّى الكلمة الإلهيّة وأن ينقلها بكلِّ أمانة إلى الشَّعب، بالقوّة نفسها التّي تلقَّاها من الربّ وهذا ما أدّى إلى اندهاش الشَّعب من تعليم الرّسل، المُعبَّر عنه بعبارة "بُهِتَت الجموع". إنَّ الإنجيل كُتِب بعد القيامة، وقد ظَهَر جَلِيًّا دور التّلاميذ بعد انتقال الربّ يسوع إلى السّماء. إنّ أقوال هذه العظة قد وصلت إلى الهند، وقد قال فيها "غاندي"، ذلك الإنسان غير المؤمن بالمسيح، الَّذي حرّر الهند بالطُّرُق السِلميَّة: إنّه مهما كان دِينُ الإنسانِ عظيمًا، فإنّه لن يصل إلى الكمال، إلّا إذا قَرَأ هذه الإصحاحات الثَّلاثة من إنجيل متّى الّتي تُشكِّل عظة يسوع على الجبل. ويُضيف "غاندي" قائلاً إنّه كَرِهَ المسيحيّين ولكنّه أحبّ المسيح.

إنّ التطويبات هي الحديث الأوّل ليسوع في إنجيل متّى. إنّ كلمة "طوبى" تعني "هنيئًا"، أي "مغبوطٌ هو الإنسان". هذه العظة نَقَلها إلينا إنجيليَّان اثنان هُما: متّى ولوقا. إنّ العظة الّتي نقلها إلينا متّى كانت على الجبل، في حين أنّ لوقا نَقَلَ إلينا العظة نفسها وقد كانت في أرض سهليّة. إنّ هذا التعارض بين المَوقعَيْن الجغرافيّين للعظة الّتي تلفَّظ بها يسوع، قد يدفع البعض إلى التساؤل حول حقيقة حصول تلك العظة، وحول حقيقة مكان حصولها. إنّ الربّ يسوع قد يكون قد تفوّه بهذه الأقوال على الجبل في إحدى المناسبات، ثمّ أعاد قولَها على آخرين في أرض سهليّة في مناسبةٍ أخرى. إنّ اختلاف المواقع الجغرافيّة عند الإنجيليَّين متّى ولوقا في نقل هذه العظة إلينا، نحن المؤمنين، يكمن في اختلاف الهدف الّذي يصبو إليه كلّ منهما: فمتّى أراد أن يدفع الشَّعب إلى استذكار موسى يوم تَسَلُّمه الوصايا مِنَ الله على الجبل، عسى الشَّعب يُدرِك أنّ الربّ يسوع هو الله. أمّا هدف الإنجيليّ لوقا فَهو دَفعُ الشَّعب لاستذكار مسيرتهم في الصّحراء وأمانة الله لهم وبقائه معهم على الرّغم من زلّاتهم، لذا جعل عظة يسوع في أرض سهلة، عسى الشَّعب يتذكَّر تلك الأيّام الخوالي. يستخدم القدّيس لوقا كلمة "طوبى" ويضيفُ إليها صِفَة خاصّة بالإنسان المَعنيّ بالتطويبة دون أيّ إضافاتٍ أخرى، فيقول مثلاً "طوبى لكم أيّها المساكين"؛ أمّا في العظة على الجبل، فنجد أنّ القدّيس متّى يضع التطويبة على

النّحو التّالي: "طوبى للمساكين بالرّوح..."، أي مع إضافة بعض الشروحات الطفيفة. إنّ سبب هذا الاختلاف يعود إلى الرّسالة الّتي أراد كلّ إنجيليّ إيصالها إلى الشّعب الّذي يبشّره. في اللّغة الأصليّة للنّص الإنجيليّ، إنّ كلمة "مساكين" تعني أيضًا الفقراء؛ أمّا القدّيس متّى فقد أضاف إلى كلمة "مساكين" كلمة أُخرى وهي "مساكين بالرّوح"، رغبةً منه في التشديد على أهميّة أن يكون الإنسان لا مسكينًا على المستوى الماديّ وحسب، بل على المستوى الرّوحي. في إنجيل متّى، نقرأ التطويبة على هذا الشّكل: "طوبى لله...، لأنّ لهم ..."؛ أمّا في إنجيل لوقا، فإنّنا نقرأها على النّحو التّالي: "طوبى لكم أيّها...، لأنّ لكم...". إنّ الإنجيليّ متّى يستخدم صيغة الغائب، أمّا القدّيس لوقا فيستخدم صيغة المُخاطَب، وبالتّالي فإنّ الإنجيليّ متّى يجعل التطويبة عامّةً تطال كلّ النّاس، على عكس الإنجيليّ لوقا الّذي يجعل من التطويبات خاصّةً بالحاضرين السّامعين لأقوال المسيح. بالنّسبة إلى بعض مفسّري الكتاب المقدّس، يُشكّل نصّ التطويبات النّظام الدّاخلي للملكوت، أي دُستوره، وبالتّالي فإنّ كلّ مَن ينجح في عيش هذا الدّستور، ينال الملكوت السماويّ، وهو لا يزال في هذه الأرض. أمّا بالنسبة لي، فإنّي أجد في هذه العظة، على امتداد فصولها، توصيفًا دقيقًا ليسوع المسيح النّاصري، إذ ما من أحدٍ غيره تَمَكّن من عيش التطويبات وتحقيقها في حياته الأرضيّة.

في إنجيل متّى، تِسع تطويبات: ثمانٍ منها في صيغة الماضي، أمّا الأخيرة فهي بِصيغة الحاضر، إذ إنّ الربّ وجّهها تحديدًا إلى تلاميذه. إنّ كلّ تطويبة تُقسَم إلى قِسمَين: القسم الأوّل:"طوبى لله..."، أمّا القِسم الثاني، فـ"لأنّ لهم..."، وإنْ جَمَعْنا القسم الثاني من كلّ التطويبات لَوَجَدْنا أنّها صلاة الأبانا مع اختلاف في التعابير: "ملكوت السماوات، يُشبَعون، يُرحَمون،..."؛ والتطويبة الأخيرة تُشكّل الطِلبة الأخيرة مِن صلاة الأبانا "لا تُدخِلْنا في التّجربة". إذًا، إنّ التطويبات على الجبل تتمحوَر حول صلاة الأبانا، وهي تُشكّل إحدى الرّسائل الّتي يصبو إليها الإنجيليّ. لقد مهّد الإنجيليّ متّى الطريق أمام الشّعب، فحَضَّرهم وهيَّأهم مِن خلال التّطويبات على الجبل، لِقُبول صلاة الأبانا. لقد أراد الإنجيليّ متّى أن يُفهِم الشّعب أنّ الله السّاكن في السّماوات هو أبوهم، لذا عليهم أن يتكلّموا معه أي أن يُصلّوا له، كما يتكلّم الابن مع أبيه. في كلّ الاحتفالات الدّينيّة الكُبرى كالشّعانين مثلاً، يفتقدني أبنائي إذ إنّهم لا يشعرون بوجودي قربهم كما هي حال جميع الأبناء مع آباهم، كوني أنا خادم الرعيّة. إنّ هذا الأمر أثار غيظ ابني الصّغير، فاضطررتُ أن أشرح له الأمر، مُهدّئًا سُخطَه عليّ، فقلتُ له: إنّ كلّ النّاس يدعونني "أبونا"، غير أنّه لا يحقّ لأيٍّ منهم سِواك مناداتي بـ "بابا". إنّ كلمة "بابا" تُعبّر عن حميميّة العلاقة الأبويّة البَنَويّة الّتي لا يحقّ لأحد التّدخل فيها. إنّ يسوع المسيح هو الوحيد الّذي يحقّ له أن يصرخ لله الآب قائلاً له: "أبَّا، أيّها الآب"، نظرًا لتلك العلاقة الأبويّة البَنويّة الّتي تجمعهما. لكنّ يسوع دعا جميع المؤمِنين به إلى الصُّراخ إلى الله الآب، مُستخدِمين صَرخته الخاصّة لأبيه "أبّا". وبالتّالي عندما نصرخ إلى الله قائلين: "أبَّا، أيُّها الآب"، فإنّنا بهذا الفِعل نُعلِن عن قبولِنا أن نكون أبناءً لله على مثال يسوع المسيح الابن. إنّ تلك الصرخة "أبَّا" الّتي يصرخها المؤمِن لله الآب، تجعله يشعر بانتمائه إلى عائلة الآب، إذ مَن يصرخ تلك الصَّرخة هو حتمًا مِن أهل البيت، إنّه ابنٌ في هذا المنزل، لا عبدٌ ولا خادِمٌ فيه، وبالتّالي له الحقّ بميراث أبيه، الّذي هو الملكوت السماويّ. هذه

هي البشرى السّارة الّتي أعلنها الربّ يسوع للبشر أجمعين بِتَجَسُّده على هذه الأرض، وهي: أنّ جميع البشر قد تحرّروا مِنَ العبوديّة وقد أصبحوا أبناءَ الله الأحبّاء، ولذا يستطيعون مع الربّ يسوع أن يصرخوا إلى الله الآب صرخةً واحدة قائلين: "أبانا". إنّ هذه البشرى الّتي نقلها إلينا الإنجيليّ متّى، يُذكِّرنا بها أيضًا القدّيس بولس الرّسول في إحدى رسائله، قائلاً لنا إنّنا قد نلنا روح التبنيّ بيسوع المسيح، ولذا يحقّ لنا أن ندعو الله ونصرخ له: "أبَّا"، بفضل روح الله الّذي أُفيضَ علينا.

في كلّ ذبيحةٍ إلهيّة، على اختلاف اللّيتورجيّات الطقسيّة الكَنَسيّة، نتلو صلاة الأبانا قَبْل التقرّب من المناولة الإلهيّة أي قبل الجلوس على مائدة الله ومشاركته الطّعام اعترافًا منّا أنّنا أبناء الله الواحد، إذ لا يحقّ للعبيد أو الخدّام أن يشاركوا الآب مائدته، فالمائدة تُعَدّ للعائلة، أي للآب ولأبنائه حصرًا دون العبيد. في الذبيحة الإلهيّة، بحسب الطقس الشرقيّ، يدعو الكاهن المؤمِنِين إلى تلاوة صلاة الأبانا، قائلاً: "أهّلنا أيّها السيّد أن نتجاسر وندعوك أبًا، مُصلّين صلاة الأبانا". إنّ كلمة "نتجاسر" تعني نتجرّأ، وبالتّالي فإنّ الكاهن يطلب من الله أن يُعطي المؤمِنِين به الجُرأة كي يتمكّنوا مِن مناداته "أبانا". ما مِن أحدٍ في البشر يستحقّ أن يُدعى ابنًا لله سوى يسوع المسيح، الّذي لولاه لما حَصلنا على نعمة البُنوّة لله بالتبنّي. إذًا، نحن أبناءٌ لله بفضل رحمته العظيمة الّتي أفاضها علينا بواسطة يسوع المسيح ابنه، وبقرارٍ حُرٍّ من الآب، يُعبّر فيه عن حُبّه اللّامتناهي لنا. في كلّ ذبيحة إلهيّة وفي كلّ عملٍ طقسيّ، لا غنى لنا عن صلاة الأبانا، إذ إنّ كلّ عمل طقسيّ يُعبّر عن شراكتنا مع الآب في وليمته السماويّة ووَحدَتنا معه. في رتبة الإكليل المقدّس، بحسب الطّقس الشرقيّ، يتمّ تلاوةُ صلاة الأبانا قبل أن يشرب العروسَان من الكأس المقدّسة. إذًا، إنّ العظة على الجبل هي تمهيد لإعلان صلاة الأبانا، الّتي كَشَف فيها الربّ يسوع للشّعب المؤمن أنّ الله هو أبوهم وأنّهم أبناءٌ له بيسوع المسيح، وأنّ الله الآب يدعوهم جميعًا لمشاركته الوليمة في المنزل الأبويّ ألا وهو الملكوت.

إنّ التطويبة الأولى الّتي قالها يسوع للتّلاميذ هي: "طوبى للفقراء بالرّوح، فإنَّ لهم ملكوت السّماوات". هذه التطويبة تعني أنَّ مَن لا يملك سوى لله ضمانةً لحياته، سينال الملكوت حتمًا، ولن يكون بحاجة إلى أيّ شيء آخر. ليس المقصود بكلمة "الفقراء"، المساكين أو البُسطاء أو ما شابه، إنّما المقصود بها الفقراء دون سواهم، أي أولئك الّذين لا يملكون أيّة ضمانةٍ ماديّة بشريّة تُخوّلهم تأمينَ معيشتهم ليومِ غَد، ولذا هم ينتظرون رحمة الربّ ونِعَمَه للاستمرار في هذه الحياة. بالنسبة إلى الفقير، إنّ كلّ يوم هو نِعمةٌ له مِن عند الربّ، إذ إنَّه لا يزال في الحياة، فالربُّ قد أمّن له من الطّعام ما يكفيه ليستمِرَّ في العيش، أمّا مصير الغَد فهو بالنسبة إليه بِيَدِ الله، الّذي إنْ لم يرزق هؤلاء الفقراء الطّعام، سيكون الموت الجسديّ مصيرهم المُحتَّم. إذًا، من خلال هذه التطويبة، يريد الربّ أن يقول لنا: مغبوطٌ هو الإنسان الّذي لا يملك أيّ ضمانٍ لغَدِه، وقد قرّر أن يضع نفسه في كنفِ الرّوح، لأنّه على ثقة كاملة بأنّ روح الله سيهتمّ في كلّ يوم بتأمين كلّ ما يحتاجه هذا الإنسان للاستمرار في الحياة. هذه التطويبة تدفَعُنا إلى استذكار مسيرة الشّعب اليهوديّ طوال أربعين سنةً، في الصحراء حيث لا حياة، وكيفيّة اهتمام الله به: فالله كان يضمن للشعب غَدَه، من خلال المَنّ والسلوى

اللّذين كان يُرسلهما إليه في الصّحراء في كلّ يومٍ. إذًا، لقد اهتّم الله بشعبه، حين كان هذا الأخير في الصّحراء، إذ قد أخذ الله على مسؤوليّته الحفاظ على حياة الشَّعب. إذًا، مَن يتّكل على الله، لا يجب أن يُفكّر في الغَد، لأنّ الله سيهتّم بالتأكيد بِمستقبل هذا الإنسان، وسيُؤمّن له كلّ ما يحتاجه. لقد اعتقد بعض أفراد هذا الشَّعب اليهوديّ أنّهم قادِرون على تأمين معيشتهم في الصّحراء مِن دون الحاجة إلى الله، لذا كانوا يُخبّئون كميّات مِن المَنّ والسّلوى لليوم التّالي، غير أنّها كانت تَفسُد وتصبح غير صالحة للأكل. إذًا، إنَّ الإنسان الّذي لا يثق بالله وبقدرته على الاعتناء به، سيكون كلّ مجهود يقوم به باطلاً وفاسِدًا. تأتي هذه التطويبة في إنجيل متّى لتُذكّر الإنسان أنّ الله هو الوحيد القادر على الاعتناء بمستقبله. إنَّ الله ليس قادرًا على تأمين المستقبل الأرضيّ للإنسان وحَسب، إنّما هو قادر كذلك على تأمين مستقبله السماويّ، أي الملكوت.

إنَّ كلمة "فقراء بالرّوح" أو "مساكين بالرّوح" لا تعني أبدًا البُسطاء، أصحاب القلوب الطيّبة، بدليل تطويبات في النّص تختصُّ بأنقياء القلوب، وبالودعاء، وبالسّاعين إلى السّلام، وبالتّالي فإنّ كلّ تطويبة تتوجّه إلى فئة مُعيّنة من النّاس. إنّ كلمة "فقراء" تشمل كلّ إنسان يحتاج إلى الآخَر كي يؤمّن له حاجته ليتمكّن من الاستمرار في العيش لأنّه غير قادر على تلبية حاجته وحده. غير أنَّ كلّ إنسان يُعاني من حاجةٍ معيّنة ضروريّة بالنسبة له كي يستمِرّ في الحياة، ولذا فإنّ هذه التطويبة تطال الجميع. إنّ المريض، مثلاً، يحتاج في كلِّ يومٍ إلى أن تُؤمَّن له كفايته من الأدوية، كي يتمكّن مِنَ الاستمرار في الحياة. إنّ كلّ فقير يعيش في قلقٍ وَهَمٍّ لتأمين مستقبله. ولا يُقصَد أبدًا بالفقير ذاك المُحتاج فقط إلى المال، إذ قد تتنوَّع الحاجة عند الإنسان، فالإنسان قد يحتاج إلى الفرح والطمأنينة والسّلام والرَّاحة النفسيّة، أكثر مِن حاجته إلى المال. إنَّ الربّ يسوع يدعونا إلى إلقاء كلّ همومنا عليه، لأنّه الوحيد القادر على تأمين كلّ احتياجاتنا. غير أنّ إلقاء كلّ همّنا على الربّ لا يعني أبدًا التكاسل، وعدم القيام بأيّ عملٍ في سبيل تأمين احتياجاتنا، إذ ليس الفقير مَن لا يرغب بالعمل، إنّما الفقير هو مَن لا يستطيع تلبية كافة احتياجاته الضروريّة وحده. لا أحد سوى الله، يستطيع أن يعلم إن كان الإنسان يُعاني من فَقرٍ حقيقيّ ناتجٍ عن عدم مقدِرته على تلبية حاجاته، أم أنَّ فقرَه ناتجٌ عن تكاسُلٍ مِن قِبَله. لا يحقّ لأيّ إنسان يرغب في المساعدة، أن يُضيّع وقته في تحليل الآخَر ومدى مِصداقيّته في الحاجة الّتي يطلبها. إنّ الله سيُحاسبُ كلّ إنسان على عدم وقوفه إلى جانب مَن يُحيطون به، وعدم إسراعه في مساعدتهم. لذا على كلّ مؤمِن أن يُساعد كلّ إنسان مُحتاج يَضَعُه الله أمامه، فيُعبّر له عن محبّته، من دون الوقوع في فخّ تحليل مدى مِصداقيّة هذا الإنسان في حاجته.

إنّ كلمة "فقراء" هي كلمة عِبريّة الأصل، وتعني "عناويم"، وقد تمّ استخدامها بوَفرة في سفر المزامير. إنّ الفقير في العهد القديم، هو الإنسان الّذي لديه ملء القناعة والإيمان أنَّ لا أحد قادرٌ على تلبية حاجته للاستمرار في الحياة، إلّا الله وحده. يقول أحد آباء الكنيسة إنّه على المؤمن أن يُصلّي المزامير بذهنيّة الإنسان الفقير، فيلجأ إلى الله طالبًا منه كلّ ما يحتاجه للاستمرار في الحياة. إنّ المزامير الّتي نجد فيها وفرة في استعمال كلمة "فقير"، قد نُسِبَت إلى داود المَلِك. إنَّ

هذا الأمر يدعونا إلى الاستغراب، إذ كيف يُمكِن لِمَلِكٍ يملكُ ثرواتٍ هائلة أن يُصلّي إلى الله ويتضرّع إليه بذهنيّة إنسانٍ فقير؟ بعد خطيئته العظيمة، صلّى المَلِكُ داود بذهنيّة الإنسان الفقير، سائلاً الله أن يغفر له، فعبَّر عن توبته قائلاً: "ارحمني يا الله كعظيم رحمتك"، ولذا نُسِبَت المزامير كلُّها إلى المَلِك داود. في العهد القديم، كانت تقتضي العادة بأن يترأس الأعلى شأنًا بين الحاضرين الصّلاة باسم الشَّعب، لذا نُسِبَت المزامير إلى داود، لأنّه الأعلى شأنًا في مملكته.

في التطويبة الثانية: طوبى للحزانى، فإنّهم سوف يُعَزَّون. إنّ كلمة "يُعزَّون" في اللّغة اليونانيّة، تدّل على المستقبل. إنّ الله صادِقٌ في مواعيده مع الإنسان، ولذا لا يجب أن يتساءل المؤمن عن زمن تَحقيق الله لها، من باب الشَّك، إنّما من باب شوقِه للقاء الربّ. إنّ الله قد وعدنا بالملكوت، والملكوت ليس مكانًا نَصِلُ إليه في المستقبل، إنّما هو حالة يبدأ المؤمن بعيشها منذ اليوم ويتابع عيشه لها بعد انتقاله من هذه الفانية. يتحقَّق الملكوت، في داخل كلّ إنسان فقير، حين يُدرِك أنّ لا أحد سوى الله قادرٌ على تلبية كلّ حاجاته. إنّ كلمة "حزانى" تعني كلّ المحزونين جرّاء فقدانهم أعزّاء لهم، ولكنّها تعني أيضًا كلّ إنسان على وَشك فُقدانِ رجائه بالله. إنّ فقدان الرّجاء بالله هو مدعاة حُزنٍ إذ ينزَع كلّ فرحٍ من قلب الإنسان. هناك أسبابٌ عديدةٌ قد تؤدي بالإنسان إلى أن يفقد رجاءه بالله كالمَرَض أو الحزن أو الفقر. في هذه العظة، يقول لنا الربّ يسوع: مغبوطٌ هو الإنسان الّذي وَضَعَ في الله تعزيَته، لأنّه سينالها حتمًا.

طوبى للودعاء، لأنّهم يرثون الأرض. إنّ الربّ لم يطلب من أَتْباعه أن يتشبَّهوا به إلّا في وداعته وتواضعه. يصعب علينا تحديد مفهوم الوداعة إذ إنّها تتَّخذ أوجهًا عدّة وصُوَرًا مُختَلِفة. وقد نجد إحدى صُوَر الوداعة، في الأطفال دون السَّنتَين، غير القادِرين على اتِّخاذ القرارات بأنفسهم، والّذين يجدون الأمان والرَّاحة الكبرى، عندما يكونون في أحضان أهلِهم. وحين يبتعد عنهم والِداهم، يبدأون بالصُّراخ والبكاء تعبيرًا منهم عن شعورهم بالخوف وعدم الأمان. إذًا، بالنسبة إلى مفهوم يسوع، الإنسان الوديع هو ذاك الإنسان الّذي لا يتحمّل الابتعاد عن الله، أبيه السّماوي. إنّ هذا الإنسان سَيَرِث الأرض، حسب قول الربّ يسوع. في العهد القديم، قال الله للشَّعب إنّهم سيَرِثُون الأرض، فاعتقدوا أنّه يتكلَّم عن مساحة جغرافيّة تقع في فلسطين، تُمنَح لهم لإقامة دولة أرضيّة. "أَنْ يرث الإنسان الأرض"، لا تعني أبدًا أنّه سينال مساحة جغرافيّة، إنّما تعني أنّ الله سيُحقِّق ملكوته في هذه الأرض، من خلاله، إذ أنّه سيكون الأرض الصّالحة للملكوت بين البشر. "أن يرث الإنسان الأرض"، لا تَعني أنّه سيعيش على هذه الأرض في أمانٍ وسلام، إنّما يعني أنّ الله سيُظلِّله بِنِعَمِه، فيعيش في هذه الأرض كأنّه في السّماء، تحت رعاية الله. وبالتّالي في هذه التطويبة، نجد تفسيرًا لِما نقوله في صلاة الأبانا:"كما في السّماء كذلك على الأرض"، أي أنّ الأرض والسّماء أصبحتا متشابهتَين، إذ إنَّ الله هو الّذي يحكم في السّماء، وعلى الأرض أيضًا، من خلال هؤلاء الودعاء. وبالتّالي، تصبح عبارة "يرثون الأرض"، عبارةٌ مُرادِفة لعبارة أخرى:"لأنّ لهم ملكوت السّماوات".

إنّ التَّفسير الخاطئ الّذي أعطاه اليهود لتلك التطويبة حول ميراث الأرض، قد تَناقَل عبر الأجيال وتَرَسَّخ في تفكير الكنيسة عبر العصور، لذا اعتبرت الكنيسة أنّ امتلاكها لأراضي الوَقف يؤمّن لها الاستمراريّة والوجود في هذا العالم.

وهذا المفهوم الخاطئ جعل الكنيسة تَتَمَسَّك بأراضي الوَقف وترفض وَضعَها في تَصرُّف كافة المؤمِنين. إنّ الكنيسة لا تستمِّد استمراريّاتها من ممتلكاتها، إنّما مِن إيمانها بالله الّذي يهتَمّ بكلّ احتياجاتها. إنّ الأوقاف الكنسيّة هي عبارة عن أراضٍ ذات مُلكٍ خاص، وهَبَها أصحابها للكنيسة، تعبيرًا عن حبّهم لله، لكي تكون مُلكًا عامًّا لجميع المؤمِنين. إنّ الكنيسة لا تقتصر على الإدارة بل إنّها تشمل جميع المؤمِنين، إكليروسًا وعلمانيّين. وبالتّالي، إنّ الكنيسة ليست حِكرًا على أحد إنّما هي تخصّ جميع المؤمِنين، وما يُسمّى ممتلكات الكنيسة إنّما هو لاستعمال الجميع فيها، لا لأشخاصٍ مُحدَّدِين، لأنّ الكنيسة هي مُلكٌ عام لا مُلكٌ خاصّ. غير أنّ بعض المسؤولِين في الكنيسة يعتبرون أن أراضي الوَقف هي مُلكٌ لله، لذا حوّلوها إلى مُلكيّة خاصّة بإدارة رؤساء الكنيسة، فيقولون إنّ هذه الأراضي هي أراضي وَقْفٍ خاصّة بكنيسة مار الياس على سبيل المثال، أي أنّه يُمنَع على أحد الاقتراب منها أو استعمالها، لأنّها تخصّ الله. وهنا يكمن الخطأ في مفهوم الكنيسة لأراضي الوقف، إذ إنّ هذه الأراضي قد أرادها الّذين وَهَبوها للكنيسة أن تتحوّل إلى مُلكٍ عامٍّ لا إلى مُلكٍ خاصٍّ ببعض المسؤولِين في الكنيسة. إنَّ اليهود أيضًا في العهد القديم، قد عاشوا هذا المفهوم الخاطئ، إذ عندما أشار لهم الله إلى مكانٍ مُحدَّد لعبادته فيه، كرّسوا هذا المكان له. إنَّ اليهود قد جعلوا مِن هذا المكان أرضًا مُقدَّسة، وقد منعوا غير اليهود من الدّخول إليه، وقد وضعوا هذا المكان تحت إدارتهم مانِعِين الله من التدّخل في شؤون إدارة الهيكل. عند رؤية الله لتصرّفات اليهود، قام بهجر الهيكل، وهذا ما يُبرِّر سبب دمار الهيكل، وتهجير الشَّعب اليهوديّ مِن أرضه، وشتاتهم في العالم. إذًا، لم يعد الهيكل، أي الممتلكات الخاصّة بالشَّعب اليهوديّ، ضمانة لهم، حين تَخَلّوا عن الله. في زمن سيطرة الشيوعيّة على الحُكم من روسيا، تمّ تجريد الكنيسة من كلّ ممتلكاتها، غير أنّ الكنيسة لم تندثر في هذا البلد على الرّغم من كلّ الاضطهادات، بل فاحت من أرضها القداسة بسبب مؤمِنِين فيها يُدرِكون حقيقة أنّ الله هو الضمانة الوحيدة لهم، لا الممتلكات.

إنّ الذهنيّة المبنيّة على فَهمٍ خاطئ لعبارة ميراث الأرض، ما زالت مستمِرّة إلى يومنا هذا، لذا نجد مثلاً كاهنًا لا يسمح بإعطاء أحد المؤمِنِين القليل من البخور أو الشَّمع الموجود في الكنيسة من دون قيام المؤمن بالتبرُّع الماديّ للكنيسة، إذ في اعتقاد الكاهن أنّ هذه التبرّعات هي الّتي سَتُخوّله شراء المزيد من هذه الأمور الخاصّة بالكنيسة عند نفاذِها. إذًا، إنّ الخوف على المصير لا يُرافق المؤمِنِين فقط، إنّما أيضًا رعاة الكنيسة، إذ فَقَد بعض الرّعاة قُدرَتَهم على عيش الفَقر بالرّوح. إنّ اهتمام الإنسان بأمر الغَد يدفعه إلى التصرُّف بالأمور الماديّة بكلِّ تأنٍ وحِرصٍ خوفًا من عدم قُدرَته على شرائها من جديد، وهذا ما يجعله يعيش في حالة من الاضطراب والخوف على غَدِه. إنّ الأرض الّتي يتكلّم عنها الربّ في هذه التطويبة هي تلك الأرض الّتي تقف فيها لعبادة الله. "أن ترث تلك الأرض"، تعني أنّ يُصبح الإنسان حُرًّا في عبادته لله الحيّ، أي أنْ يَعبُدَه بقرارٍ حرٍّ داخليّ ينبع من داخِلِ الإنسان. يَسْعى الإنسان الوديع أي المتّكل دائمًا على الله إلى التخلّي عن كلّ الصِّفات الّتي تُبعِدُه عن الله كالأنانيّة والحَسَد والطّمع. لأنّ الوداعة هي اللّاحسد، اللّاطمع، واللّاأنانيّة.

طوبى للجياع والعطاش إلى البِرّ لأنّهم سيُشبَعون. إنّ الجائع والمتعطِّش للبِرّ هو كلّ مؤمِن يرغب في أعماقه أن يتحقّق ملكوت الله فيما بين البشر، أي على هذه الأرض. إنّ المقصود بعبارة "البِرّ" هو إرضاء الله. في يوم المعموديّة، حين رفض يوحنّا أن يُعمِّد يسوع على نهر الأردُنّ لأنّ يوحنّا هو المحتاج إلى تلك المعموديّة على يد يسوع، أجابه الربّ قائلاً: "دَعنا الآن، نُتمِّم كلّ بِرّ"، أي فلنَعمَل الآن ما يُرضي الله، مُحقِّقين مشيئته القُدُّوسة. إذًا، مِن خلال هذه التطويبة، يُطَمْئِنُ الربّ يسوع كلّ إنسان يسعى ويجاهد كي يُحقِّق مشيئة الله، أنّه سيحظى في النِّهاية على رِضى الله.

طوبى للرّحماء فإنّهم يُرحَمُون. في هذه التطويبة، يدعونا الربّ يسوع لأنْ نعيش الرّحمة تجاه إخوتنا البشر كي نستحِقَّ أن ننال الرّحمة العُظمى مِنَ الله.

طوبى لأنقياء القلوب، لأنّهم يُعاينون الله. إنّ هذه التطويبة تُظهِر لنا العلاقة الموجودة بين القلب والعَين. وفي موضِعٍ آخر في هذه العظة، يُوضِح لنا الربّ يسوع تلك العلاقة بينهما في قولِه: "إن كانت عينُكَ بسيطة، فجسَدُكَ كُلُّه نيِّرٌ". إذًا، إنّ العَين البسيطة، أي تلك العَين الّتي لا تُحلِّل ولا تَظُنّ السُّوء بالآخَرين، تعكس نقاوةَ وطهارةَ قلب صاحبها. وبالتّالي، فإنَّ يسوع يدعو كلّ مؤمن لأن يجتهد كي تكون عينه بسيطة، فلا يحكم بعدئذٍ على الآخَرين مِن خلال أيّة حادثةٍ يراها أمامه. إنّ التَّجربة هي التصرّف مع الآخَرين، مِن دون الاستناد على تحليلاته الخاصّة لتصرُّفاتهم، والتّي قد تُخطِئ أحيانًا كثيرة. أمّا إذا تَصَرَّفَ الإنسان مع الآخَرين إنطلاقًا من تحليلاته الخاطئة، فإنّه بهذا الفعل يكون قد وقع في الخطيئة. إنّ خطورة الأحكام المسبقة على الآخَرين، تكمن في أنّها تجعل نظرة الإنسان إلى الآخَرين مبنيّة على تلك التحليلات الخاصّة مِن دون الأَخذ في الاعتبار أنّ هذا الإنسان المحكوم عليه، قد يتفاعل مع نعمة الله فيتوب ويُحسِّن مسيرته الحياتيّة، ولذا نجد أنّ هذه الأحكام المسبقة، تُحدِّد طريقة تعاملنا مع الآخَرين. على المؤمن أن يتحاشى الوقوع في فخّ إدانة الآخَرين، لأنّ الآخَر قد يتوب في أيّة لحظة، ولذا لا يجب التعامل معه بشكلٍ دائمٍ إنطلاقًا مِن هفوة قد ارتكبها في الماضي، لأنّه إنْ كان الله قد سامح هذا الإنسان، أيجوز لنا نحن المؤمِنِين الاستمرار في النّظر إليه إنطلاقًا من أخطائه؟ لا يحقّ لأيّ إنسان أن يتعدّى على حقوق الله، فيجلس على عرش الله لِيَدين إخوته البشر. فَمَن أراد الجلوس على عرش الله، لن يتمكّن من معاينة وجه الله لأنّه بهذا الفعل، يكون قد أخذ مكان الله. إنّ أنقياء القلوب هم فقط الّذين سيتمكّنون مِن معاينة وجه الله، بِحَسبِ قول الربّ يسوع.

طوبى لصانعي السّلام، لأنّهم أبناء الله يُدعَون. إنّ صانع السّلام ينتمي بالضرورة إلى عائلة الله. إنّ السّلام لا يعني أبدًا اللّاحرب، إنّما يعني الحبّ، والحبّ هو الله، وبالتّالي فإنَّ مَن يُحبّ، هو مِن أبناء الله، وهو بالتّالي صانع سلام. هذا هو تفسير تلك التطويبة. إنّ فاعل الفِعل "يُدْعَونَ" ليس مجهولاً أبدًا، بل هو معلومٌ تمامًا وهو الله. إنّ صيغة الأفعال المجهولة في الكتاب المقدّس، تُشير إلى أنّ الله هو الفاعل الحقيقيّ لكلّ تلك الأفعال. إنّ الله يفتخر بكلّ إنسان يكون صانعَ سلامٍ، ولذا يَدعُوه ابنًا له. إنّنا نتحوّل إلى سبب سرور الله يوم نسعى إلى صُنعِ السّلام ونشره في محيطِنا. إنّ صناعة

السّلام ليس بالأمر السّهل، بل إنّه يتطلّب مجهودًا مِن قِبَل الإنسان. إنّ كلمة سلام، تدّل بالضرورة على وجود شخصين إذ لا يمكننا الكلام عن السّلام إن كان الإنسان وحيدًا. وبالتّالي، فإنَّ مَن يصنع السّلام، هو يجهد إلى بناء ملكوت الله في هذه الأرض، تحضيرًا لملكوت الله في السّماوات.

طوبى للمطرودين من أجل البِرّ لأنَّ لهم ملكوت السّماوات. إنّ هذه التطويبة تُخبِرنا عن أنّ الاضطهاد سيكون نصيب كلّ إنسان يسعى إلى إرضاء الله، وهذا ما يُسمّى بالاضطهاد مِن أجل البِرّ. ولكن يجدر بنا الإشارة إلى أنّ ليس كلّ إضطهادٍ أو طردٍ يُعاني منه الإنسان هو بالضّرورة في سبيل البِرّ، إذ قد يُعاني الإنسان مِن الطرد مِن قِبَل الآخَرين جرّاء تصرّفاته السيئة والمزعجة لا مِن أجل إعلانه كلمة الله والتبشير بها. قد يعتقد البعض، حين يتعرّضون للطرد، أنّهم يُضطَهدون من أجل البِرّ غير أنّ سبب ذلك قد يعود إلى تصرّفات المبشِّر وأطباعه السيئة، لذا على المبشِّر أن يسعى إلى أن تكون تصرّفاته لا لوم فيها، كي لا تتعطّل كلمة الله بسببه. إنّ الإنسان لا يستطيع أن يبشِّر بكلمة الله ويكون تبشيره مثمرًا في نفوس الآخَرين إن لم يحترق من الدّاخل بلَهيبِ تلك الكلمة. إنَّ كلمة الله هي من دون شكّ قادرة على أنْ تصل إلى الآخَرين وأن تُغيِّر فيهم، من دون أيّة مساعدة بشريّة، غير أنّ تصرّفات بعض المبشرين قد تُبَطئ عمليّة وصولها إلى قلوب الآخَرين. إنَّ احتراق المبشِّر بكلمة الله، سيُساهم في إشعالها أيضًا في قلوب الآخَرين فيستنيرون بها، وتدفعهم إلى تغيير مسيرة حياتهم. إذًا، ليس كلّ إنسان مُضطَهد أو مطرود مِن قِبَل الآخَرين، هو حقًّا مطرود ومُضطَهد من أجل البِرّ إذ قد تكون تصرّفاته السيئة هي السَّبب في طَردِ الآخَرين له. إنَّ المضطَهد من أجل البِرّ هو ذاك الإنسان الّذي يتعرَّض للاضطهاد جرّاء إعلانه للآخَرين الإنجيل.

في الموعظة على الجبل، أعطى القدّيس متّى بعض التفاصيل حول نوعيّة الاضطهاد من أجل البِرّ، حين قال يسوع في تطويبةٍ: "طوبى لكم إذا عيَّروكم واضطهدوكم (طردوكم) وقالوا عنكم كلّ كلمة سوءٍ من أجل اسمي كاذبين، افرحوا وتهلّلوا لأنّ أجرَكم في السّماوات عظيم لأنّه هكذا اضطهدوا الأنبياء مِن قَبلِكم". وبالتّالي، يستطيع المؤمِن أن يستنتج من هذه التطويبة أنّ ليس كلُّ اضطهادٍ يتعرَّض له هو حقًّا اضطهادٌ من أجل البِرّ. لقد أشار الإنجيليّ متّى إلى أنَّ هذه التطويبة لا تطال إلّا الأشخاص الّذين يبشّرون بكلمة الله، وَهُم في الوقت نفسه يتعرَّضون إلى التعيير وكلام السوء، عن غير وجه حقّ. أمّا المبشِّر الّذي يتعرَّض لكلام السوء مِن الآخَرين نتيجة تصرّفاته السيئة، فهذا لن ينال تلك الطوبى. إذًا، إنّ المبشِّر الّذي يتعرَّض للاضطهاد نتيجة إعلانه كلمة الله دون سواها، سينال أجرَه في السّماوات، وهو أجرُ الأنبياء في العهد القديم.

إنّ هذه التطويبات تُعطي نموذجًا عن أبناء الملكوت، وقد تحقَّقت كلّ هذه التطويبات في يسوع المسيح. لذا، مَن أراد الحصول على الملكوت، عليه أن يتشبّه بالمسيح، ويطبّق هذه التطويبات في حياته، فيكون مِسكينًا بالرّوح، نقيّ القلب، وديعًا، وصانع سلام. إنَّ كلّ إنسان يريد الحصول على الملكوت عليه أن يعيش وِفْقَ هذه التطويبات، إذْ لم تعد عَيشها مستحيلاً. إنَّ الملكوت ليس مكانًا يصعب الوصول إليه، إنّما ملكوت الله يتحقّق في داخل كلّ إنسان حين يعيش وَفقَ

هذه التطويبات. إنّ كلمة "الملكوت" هي مِن أصل سريانيّ، "ملكوتو"، وتعني المملكة، ولا مملكة من دون ملك. إنّ مهمّة الملك تقوم على الاهتمام بشعبه، وتأمين الحماية له. إنّ الملك هو مَلِكٌ على شعبٍ، وبالتّالي فإنّ هذا الشَّعب يخضع لهذا الملك، ويؤدّي له الطّاعة. إذًا، عندما نتكلَّم عن ملكوت السّماوات، فهذا يعني بكلّ تأكيد أنّ لهذه المملكة السّماويّة شعب ومَلك. في الملكوت السماوي، الملك هو الله، ويتميّز هذا الملك بأنّه قرّر بإرادةٍ حُرَّة منه قبول الموت فداءً لِشعبه، وبالتّالي بهذا الفعل، يكون قد عكس كلّ القوانين البشريّة السائدة. إنّ المملكة البشريّة تكون عُرضَةً للأخطار وللخراب حين يموت الملك، لأنّ الّذي كان يحميها ويدافع عنها قد مات. لذا، لا تُعلِن الممالِك موت مَلِكها إلّا بعد أن يتمّ تعيين مَلك آخر وإعلان اسم المَلِك الجديد، وهذا ما يُبرِّر عدم استعمال هتافات شعبيّة مثل "مات الملك"، إنّما "عاش الملك". إذًا، أهميّة المملكة تتعلَّق بوجودِ مَلِكٍ عليها، ولذا نقرأ في سفر المزامير: "الربّ قد مَلَك والجمالَ قد لَبِسَ". إنّ المزمور لا يقول أنَّ الربّ سيملك في المستقبل، بل مَلَك، إذ لا يمكن أن تثبت مملكة بغياب مِلكِها، وبالتّالي هناك إشارة إلى أنّ ملكيّة الربّ هي دائمة وأبديّة. على الملك الّذي يريد أن يستمِّر مُلكُه، أن ينتصر على الأعداء وأن يعيد الأمان إلى مملكته. هذا هو الملكوت: انتصار الربّ على عدّوه، وإعادة الحياة إلى المؤمِنين به. إذًا، كلّ من يريد الملكوت، عليه أن يتّخذ مِن الله مَلِكًا، وأن يسعى إلى أن ينال حُظوةً في عينيّ الله، حين يُطبِّق ما أوصانا به.

ملاحظة: دُوِّنت المحاضرة مِنْ قِبَلِنا بتصرّف.